الحركة السنوسية في أفريقيا في ضوء تقرير سري بريطاني صادر عام ١٩٠٨م

الأستاذ المساعد الدكتور
فليح حسن علي
الأستاذ المساعد الدكتور
ياسين شهاب شكري
جامعة الكوفة - كلية الآداب

تقديـــم :

شهدت البلاد العربية والإسلامية تدهوراً كبيراً في الأوضاع العامة ، وبخاصة في القرنين السابع عشر والثامن الميلاديين ، لما آلت إليه الأمور من تراجع في مختلف مجالات الحياة . وهذا ما أدى إلى بروز دعوات مطالبة بتغيير الواقع عن طريق الإصلاح من خلال رؤية البعض بالأخذ بالأساليب الأوربية الحديثة ، وبين من يرى بأن العودة إلى القرون الأولى للإسلام والمرتبطة بانتشار الإسلام وتعاظم قوة المسلمين وازدهار أحوالهم. وعلى قدر تعلق الأمر الاتجاه الثاني ، فإنَ المنطلقات الأساسية للفكرة كانت تقوم على أسس التغيير القائمة على نبذ الانحرافات الحاصلة للمجتمع في الجوانب الدينية والاجتماعية كالعبادات وممارسة بعض السلوكيات الخاطئة. وقد جاءت بعض المعالجات لتلك الانحرافات عبر مهاجمة تلك السلوكيات ، واستخدام أساليب الشدة والعنف كالتي قامت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.(١) ودعت معالجات أخرى إلى الإصلاح بالوسائل السلمية عبر إقناع المجتمع بضرورة الأخذ بالتعاليم والممارسات الصحيحة. وهذا ما دعت إليها الحركة السنوسية من خلال تأشير ملامح الخلل والضعف لدى المسلمين ، وضرورة العمل على التغيير من خلال الدعوة إلى الإصلاح وإقناع المسلمين بضرورة التغيير. وهذا ما وفر لها إطار القبول والانتشار في رقعة جغرافية واسعة من العالم الإسلامي امتدت من الحجاز شرقاً حتى المغرب الأقصى غرباً ومن السواحل الشمالية لأفريقيا شمالا حتى أواسط أفريقيا جنوباً. وقد شكل شرق ليبيا المعروف آنذاك بـ (إقليم برقة) قاعدة الدعوة

الأساسية نظراً لما كانت تتمتع به من عوامل ساهمت في إيجاد البيئة المناسبة لانتشار السنوسية. وهذا ما أدى إلى القبول بها كفكر ديني إصلاحي ، وكإدارة للحكم في بعض المناطق أمام تراجع الإدارة العثمانية الحاكمة في تلك المناطق ،فضلا عن ازدياد خطر التغلغل الأوربي وموقف السنوسية المعارض لها.

ولذا فإنَ القوى الاستعمارية ، وخاصة بريطانيا انتبهت إلى خطورة السنوسية وتوجهاتها ضد الاستعمار، فأخذت تتابع نشاطها وتحركاتها بتقارير سرية. والتقرير السري البريطاني المراد تناوله في هذا البحث يشير إلى نشأة السنوسية وتوسعها وعلاقاتها بالقوى الأوربية. وهو جزء من اهتمامات القوى الاستعمارية في دراسة مكامن القوة والضعف لدى السنوسيين ، وسبل مواجهتهم على اعتبار أن وجود الحركة السنوسية يمثل خطراً يهدد مصالح ووجود الدول الأوربية في أفريقيا ، وتحديداً كل من فرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا. ولغرض إعطاء صورة واضحة عن ماهية تلك الحركة وأفكارها وتوسعاتها ، لابد من الإشارة إلى الأسس التي قامت عليها السنوسية ، وكيف استطاعت الوصول إلى المناطق النائية في الدواخل الأفريقية.

المبحث الأول

نشأة الحركة السنوسية وتوسعها

تناولت العديد من الدراسات التاريخية نشأة الحركة السنوسية وتوجهاتها الفكرية ، وانتشارها الواسع في المناطق المختلفة.(٢) غير أنَ معظمها تناولت بالدرجة الأساس النشاط السنوسي في شرق ليبيا (إقليم برقة) دون الخوض في التفاصيل المتعلقة بامتدادات الحركة نحو الدواخل الأفريقية ، ودورها في نشر القيم والمبادئ الدينية الصحيحة ، ومواجهتها للتغلغل الأوربي في تلك المناطق. ويبدو أنَ السبب في ذلك قلة المصادر والمعلومات عن نشاط السنوسية في تلك الأرجاء ، والذي تناوله التقرير السري موضوع البحث والغير منشور سابقا.

ظهرت الحركة السنوسية في برقة بعد استقرار (السيد محمد بن علي السنوسي) (٣) فيها خلال المدة (١٨٥٦-١٨٥٩م) ، والذي اتخذ من واحة الجغبوب جنوب بنغازي قاعدة لنشر أفكاره الإصلاحية القائمة على المزج بين الدعوة إلى الإصلاح والتجديد ، والعودة إلى الإسلام الصحيح بعيدا عن التزمت الفكري والمنهجي ، في سبيل معالجة

الضعف والانحلال الذي أصاب العالم الإسلامي ومواجهة الأطماع الاستعمارية الأوربية في السيطرة على مناطق المسلمين.(٤) واستمرت الدعوة السنوسية في عهد ولده (السيد محمد المهدي السنوسي) (٥) ، والذي عمل على توسيع نشاط الدعوة نحو المناطق البعيدة في جنوب ليبيا والدواخل الأفريقية من خلال انتقال مركز الحركة عبر مناطق: (الجغبوب) في شرق ليبيا (١٨٥٩-١٨٩٥م) ، (الكفرة) في جنوب ليبيا (١٨٩٥-١٨٩٩م) ، (قرو) في شمال شرق تشاد (١٨٩٩-١٩٠٢م) . (٦)

لقد اتخذت السنوسية وسائل العمل الميداني منهجاً لإحياء تعاليم الدين الصحيحة من خلال نشر قيم التعاون والاتحاد وربط أواصر المحبة بين أفراد المجتمع من خلال حل المشاكل والخلافات ، ومحاربة الجهل الذي انتاب المجتمعات عبر نشر التعليم الديني في جميع المناطق والمدن والواحات من خلال(الزوايا).(٧) كما عملت السنوسية على محاربة الكسل والتواكل وبعض مظاهر الترف عبر دعوة الأتباع إلى العمل في مختلف المجالات. والقاعدة الأساسية التي اعتمدت في تطبيق تلك الأفكار والمفاهيم هي الاعتماد على الذات من خلال قيام المجتمع سواء كأفراد أو جماعات (القبائل) بممارسة الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية.(٨)

فمن الناحية الاقتصادية ركزت السنوسية على الأرض والزراعة من خلال قيام الأفراد التابعين لها سواء المقيمين في الزاوية من شيوخ وطلبة بممارسة النشاط الزراعي في الأراضي التابعة للزوايا ، والتي كانت تشغل مساحات واسعة.(٩) إذ يقوم هؤلاء بزراعة مختلف أنواع المحاصيل ، واستخدام الإنتاج لصالح تأمين المواد الأغذية للزوايا ، وبيع الفائض منها في أسواق المدن والمراكز التجارية الأخرى.(١٠) كما جرى الاهتمام بالحرف والصناعات اليدوية وبما يلبي متطلبات الزاوية والسكان القاطنين فيها. وأما من الناحية التجارية ، فإنَ وجود الزوايا على مفترق طرق القوافل التجارية قد مكنها من أداء دور هام في حفظ الأمن والنظام ومنع السرقة والاعتداء على القوافل ، فضلا عن تقديم الخدمات المتعددة للمسافرين والتجار، كالإقامة ووجود المستودعات والخانات لخزن البضائع والسلع التجارية. (١١) وقد أدى ذلك إلى ازدهار التجارة بين المناطق الساحلية والدواخل الأفريقية بشكل كبير.(١٢)

أما بالنسبة للتوجهات الاجتماعية ، فإنَ السنوسية عملت على نشر أفكارها بين السكان من خلال الزوايا المنتشرة في مناطق القبائل، والتي عملت على فض النزاعات التي كانت تحدث بين الأفراد داخل القبيلة الواحدة ، أو بين القبائل المختلفة ومن الاقتتال والحروب بينها.(١٣) وقد تحولت تلك الزوايا إلى أماكن آمنه يلجا إليها الناس لعرض مشاكلهم وخصوماتهم ، وهي في الوقت ذاته تعد حرما آمناً لمن دخلها أو استجار بها ، ولا يجوز التشاجر أو حمل السلاح بداخلها .(١٤) ونجحت السنوسية في حل العديد من الخلافات التاريخية القديمة بين العديد من القبائل ، وإقامة التحالفات بين بعضها البعض لمواجهة التحديات والأخطار الداخلية والخارجية ، ولاسيما مواجهة خطر التغلغل الأجنبي المتمثل في الأطماع الاستعمارية الأوربية بالبلاد الإسلامية.(١٥)

لقد لعبت الزوايا السنوسية دورا هاماً في زيادة الوعي الشعبي بمخاطر التغلغل الأوربي مثل: محاولات الإيطاليين شراء الأراضي في ليبيا قبيل احتلالها لها.(١٦) كما كانت الحركة تنظر بكثير من الريبة والشك أمام زيارات الرحالة الأجانب للمناطق الساحلية والداخلية ، وتعمل على مراقبتهم تحركاتهم المشبوهة ، خاصة في مناطق برقة. (١٧) كما كان لها الدور البارز في مقاومة الغزو الفرنسي في الدواخل الأفريقية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كما سيرد لاحقا في ثنايا هذا البحث.

المبحث الثاني

التقرير السري البريطاني . . الأهمية والمحتوى

يعد التقرير السري البريطاني ، موضوع البحث ، ذا أهمية كبيرة من حيث الجهة التي أصدرته وهي بريطانيا ، وتاريخ إصداره ، والموضوع الذي تناوله.

فالتقرير بالأساس عبارة عن مجموعة من تقارير الضباط العسكريين البريطانيين ضمن دائرة الاستخبارات العسكرية للجيش البريطاني في مصر خلال المدة (١٩٠٢-١٩٠٧م) ، والتي جمعت ضمن تقرير متكامل صدر بتاريخ ١٨ حزيران ١٩٠٨م بإدارة الضابط الإداري العسكري غيسرل سراف (GESERAL . SRAFF) ، وعنوانه:

((ملاحظات عن تاريخ السنوسية وعلاقتها بسيطرة القوى الأجنبية على أفريقيا)).

((NOTS OF THE HISTORY OF SENUSSISM AND THE RELATION TO THE AFRICAN POSSESSIONS OF FOREIGN POWERS)) .

وبالنظر لأهمية التقرير والمضامين الواردة فيه، فقد تمت الإشارة في الصفحة الأولى من العنوان إلى أن هذه الوثائق التي جمعها التقرير تابعة للحكومة البريطانية بما فيها من معلومات سرية خاصة ، ولا يتم الإطلاع عليها إلاَ بتوجيه من وزارة الحربية ودائرة الاستخبارات العسكرية التابعة لها.(١٨)

والسؤال الذي يتبادر للأذهان ، لماذا عدَ هذا التقرير سرياً وذا طابع عسكري بحيث لا يتم تداوله إلاَ في نطاق محدود ؟.

وللإجابة يمكن القول ، إنَ الدافع الحقيقي من قيام الدوائر العسكرية البريطانية بجمع المعلومات عن الحركة السنوسية كان ذو أهداف ونوايا استعمارية في معرفة الحركة السنوسية وتعاظم دورها في أفريقيا ، ومعرفة مواطن القوة والضعف فيها ، خاصة وأنَ بريطانيا كانت قد احتلت مصر منذ عام ١٨٨٢م ، وألحقت السودان بحكمها عام ١٨٩٩م. وأن وجود السنوسية في المناطق الواقعة غرب مصر والسودان كان يمثل تهديداً حقيقياً للوجود البريطاني ، وهي التي كانت تدعو في توجهاتها إلى مواجهة الاستعمار الأوربي وأطماعه في مناطق المسلمين.(١٩) ويبدو أنَ البريطانيين كانوا يدركون بأن المواجهة المباشرة مع السنوسيين أمر محتم وقوعه يوماً ما. وهذا ما حدث خلال الحرب العالمية الأولى عندما وجهت الحركة السنوسية حملة عسكرية بقيادة زعيمها (السيد أحمد الشريف)(٢٠) خلال المدة (تشرين الثاني ١٩١٥م لغاية شباط ١٩١٧م) ، كجزء من محاولات الدعم الذي أرادت أن تقدمه السنوسية للدولة العثمانية ضد الوجود البريطاني في المنطقة.(٢١)

ومن جهة أخرى كان التسابق الاستعماري الأوربي قد بلغ أوجَه باتجاه احتلال مناطق شمال أفريقيا ووسطها ، خاصة بين كل من: بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا آنذاك. إذ أن البريطانيون وبعد سيطرتهم على مصر والسودان ، عملوا على توسيع نفوذهم نحو المزيد من المناطق الأفريقية الأخرى.(٢٢) أما الفرنسيون الذين كانوا قد احتلوا سابقا الجزائر منذ عام ١٨٣٠ ، وتونس عام ١٨٨١م ، ومناطق الريف المراكشي في مطلع القرن العشرين ، ثم توجهوا عبر غرب أفريقيا لاحتلال وتكوين العديد من المستعمرات في مناطق غرب ووسط أفريقيا، والتي أدت إلى تكوين مجموعتين رئيسيتين من المستعمرات هما: مجموعة أفريقيا الغربية الفرنسية المعروفة اختصارا (A.O.F) ، وتضم مستعمرات

(السنغال وموريتانيا ، السودان الفرنسي ، غينيا الفرنسية ، ساحل العاج ، فولتا العليا ، داهومي ، النيجر). ومجموعة أفريقيا الاستوائية الفرنسية المعروفة اختصارا (A.E.F) ، وتضم مستعمرات (تشاد ، أفريقيا الوسطى ، الكاميرون ، الكونغو الفرنسية ، الغابون).(٢٣) أما الإيطاليون فتركز اهتمامهم في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين على التغلغل السلمي في ليبيا ، ثم احتلالها بشكل مباشر عام ١٩١١م. (٢٤) ومن الطبيعي أن يكون هناك اهتمام من قبل الدولة المذكورة آنفاً في معرفة القوى المحلية التي تسيطر على تلك المناطق ولها نفوذ شعبي واسع فيها كالحركة السنوسية وزواياها المنتشرة في معظم المناطق المذكورة .

أما بالنسبة للمحتوى الوارد في هذا التقرير ، فإنَه جرى تقسيمه إلى ثلاثة أقسام ، كما سنبين ذلك لاحقاً ، مع الإشارة إلى أنَ أسلوب عرض المعلومات الواردة في التقرير قد جرى على أساس التسلسل التاريخي وليس على أساس الموضوعات. إذ أن التقرير تناول المدد التاريخية وفقاً للأحداث الهامة التي مرت بها الحركة السنوسية ومنذ وقت مبكر.

المبحث الثالث

التحليل التاريخي للمضامين الواردة بالتقرير.

أولاً: القسم الأول (١٨٢٢-١٩٠٢) السنوسية .. التاريخ المبكر

يبتدئ التقرير في إعطاء البعد التاريخي للحركة السنوسية من خلال العودة إلى جذور انطلاقها على يد المؤسس السيد محمد بن علي السنوسي وعبر اتخاذ عام ١٨٢٢م المنطلق الأول للتحرك . وهو العام الذي انتقل فيه السنوسي من مسقط رأسه في مدينة مستغانم بالجزائر نحو مدينة فاس بالمغرب، بالرغم من أنَ التقرير يشير خطئاً بأنَ هذا التاريخ يمثل عودته من المغرب إلى الجزائر.(٢٥) إذ أنَ السنوسي كان قد أقام في فاس لمدة سبع سنوات طلبا للعلم خلال المدة (١٨٢٢-١٨٢٩م). (٢٦)

أما عن حياته الأولى فقد أشار التقرير بأنَ السنوسي ولد في مستغانم ولقب بهذا اللقب نسبة إلى جبال سنوس في الجزائر.(٢٧) وأنه مع بروزه كشخصية علمية وبسبب آرائه ومواقفه من الحكم العثماني ، أصبح شخصاً غير مرغوب به ، فأجبر على مغادرة

البلاد باتجاه المغرب ليقيم هناك طيلة سبع سنوات ومن ثم العودة إلى الجزائر من جديد ليبث أفكاره الإصلاحية والثورية التي تعمقت لديه خلال سنوات الاغتراب. غير أنه لم يلق تجاوباً كبيراً في بث أفكاره الأمر الذي اضطره إلى مغادرة الجزائر نحو المشرق الإسلامي باتجاه مصر ثم مكة. وقد واجه في مكة معارضة شديدة من قبل بعض العلماء بسبب أفكاره ونشاطاته ، فغادرها بعد سنوات إلى شرق ليبيا (برقة) بعد أن ترك خلفه عدد من الزوايا التي أسسها في الحجاز.(٢٨)

ويستمر التقرير في الحديث عن إقامة السيد السنوسي في برقة من خلال قيامه بتأسيس عدد من الزوايا هناك ، وانتشار دعوته وأفكاره بين السكان حتى اتخاذه المنطقة مستقراً دائما له في واحة الجغبوب جنوب بنغازي عام ١٨٥٥م. إذ أن هذه الواحة كانت بمثابة مركز القيادة ومقر المؤسس للحركة . وهي لم تكن في السابق سوى واحة مقطوعة في الصحراء يتخذها قطاع الطرق كمأوى لهم ، فحواتها السنوسية إلى واحة عامرة بالبناء والزراعة ، ومأوى للأتباع والطلبة والضيوف القادمين إليها.(٢٩) وظل مقيماً فيها حتى وفاته عام ١٨٥٩م ، بعد أن اكتسب مكانة كبيرة بين القبائل في شمال أفريقيا وفي الزوايا التابعة له والممتدة من الحجاز إلى المغرب. (٣٠)

وقد حاول التقرير بيان بعض الأفكار الإصلاحية التي دعت إليها السنوسية والعوامل التي ساهمت في انتشارها. إذ أشارت بأنَ الدعوة كانت تحث على العودة للتعاليم الدينية الأولى التي جاء بها النبي محمد (ص) ، ومحاربة البدع والخرافات الموجودة في المجتمع ، والتأكيد على ضرورة إيجاد إمامة أو زعامة دينية تقوم بإدارة الأمور الدينية والدنيوية. وقد أشار التقرير إلى وجود عاملين أساسيين ساهما في نشر السنوسية هما:-

١- الانفتاح الكبير على جميع فئات المجتمع . فالإنسان يمكن أن يصبح سنوسيا بغض النظر عن انتماءاته الأخرى ، وكل ما هو عليه الالتزام بالدعوة وترك الممارسات الخاطئة السابقة التي كان يقوم بها سابقاً.

٢- كانت السنوسية تدعو إلى العمل وترك الكسل ، خاصة في مجال أعمار الأرض وزراعتها ، بحيث أصبحت تلك الدعوة من أساسيات الأفكار السنوسية في تلك المناطق والمؤثرة على الحياة العامة للسكان.(٣١)

السنوسية منذ وفاة المؤسس

تحت هذا العنوان تناول التقرير نشاط السيد محمد المهدي نجل المؤسس ، الذي استلم زعامة الحركة بعد وفاة أبيه بوصفه الابن الأكبر والوريث الشرعي للحكم ، خاصة وأنه يحمل ذلك النسب الشريف الذي يعود إلى النبي وآل بيته. (٣٢) وقد سار على نهج والدهر في نشر أفكار الحركة وزيادة عدد الأتباع في كل مكان ولاسيما باتجاه الجنوب في وسط أفريقيا. ففي حدود عام ١٨٧٠م حدث تطور هام في تلك المناطق عبر قيام أحد السلاطين المسيطرين على مناطق شمال شرق تشاد وهو (السلطان علي)(٣٣) بإعلان ولاءه للحركة السنوسية ، وهذا ما أدى إلى انتشار السنوسية في تلك المناطق برمتها.(٣٤)

أما بالنسبة للعلاقة مع الدولة العثمانية التي كانت تحكم ليبيا آنذاك وتطلق عليها (ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنغازي) ، فإن العثمانيين حاولوا استمالة السنوسيين إلى جانبها وكسب ودهم ، ومحاولة مد نفوذ سلطتها على المناطق الداخلية الموالية لنفوذ الحركة . وقد أشار التقرير بأنَ السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أمر عام ١٨٨٢م بطبع كتاب (الصلاة) الخاص بأتباع السنوسية في القاهرة ، وقام أيضاً بإرسال رسالة عام ١٨٩٤م مع موظفين تركيين إلى السيد محمد المهدي السنوسي في واحة الجغبوب يدعوه فيها إلى زيارة استانبول. غير أنَ السيد اعتذر عن قبول الدعوة لخشيته من محاولات الأتراك القبض عليه ، خاصة وأنَ أخباراً كانت قد وصلت إليه في السابق بشأن قيام السلطات العثمانية في طرابلس الغرب بإلقاء القبض على أحد المشايخ السنوسيين وأنها تسعى لإلقاء القبض عليه أيضاً بعد امتعاضها من ازدياد نفوذه على حساب نفوذ السلطة. وهذا ما دفع زعيم الحركة إلى نقل مقر مركزه من الجغبوب في ربيع ١٨٩٥م والتوجه نحو الكفرة برفقة ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف من أتباعه لغرض اتخاذها كقاعدة جديدة لمركز الحركة.(٣٥) وقد استمرت المحاولات العثمانية في مد جسور الثقة والعلاقة مع زعيم السنوسية حتى بعد انتقاله إلى الكفرة ، خاصة بعد تقدم الأوربيين من الكونغو في غرب أفريقيا باتجاه وسط أفريقيا ، غير أن المحاولات وإرسال مبعوث جديد إلى الكفرة لم تؤدي إلى النتائج المرجوة .(٣٦)

وينتقل التقرير في إطار بيان العلاقات السنوسية مع القوى المحلية والإقليمية للإشارة إلى العلاقة مع الحركة المهدية في السودان. (٣٧) إذ أنَ زعيم الحركة السيد محمد المهدي السنوسي تلقى رسالة من زعيم الحركة المهدية السيد محمد أحمد الملقب بالمهدي عام ١٨٨٣م تضمنت الطلب منه بالانضمام إلى دعوته . غير أن السنوسي لم يرد عليه بأي شئ ، والأكثر من ذلك طلب من أتباعه في الجنوب بمناطق وادَاي ، والتبمو ، والبورنو عدم الدخول في دعوة المهدية ومقاطعة أية نشاطات لها في مناطقهم ، خاصة عندما حدثت انتفاضة عام ١٨٨٨م بقيادة احد الزعماء المحليين المؤيدين للحركة المهدية ويدعى (أبو كميزة). وهذا ما أدى إلى استمرار العلاقة غير الودية بين السنوسية والمهدية طيلة حكم محمد المهدي وخليفته عبد الله التعايشي في أم درمان بالسودان.(٣٨)

لقد حدث تطور جديد في مجال العمل الدعوي للحركة السنوسية من خلال انتقال مركز الحركة وزعيمها السيد محمد المهدي من (الكفرة) إلى (قرو) في شمال شرق تشاد عام ١٨٩٩م. ويصف التقرير المركز الجديد بأنها كانت عبارة عن واحة صغيرة واقعة إلى الجنوب الغربي من جبال تيبستي ، وهي ضمن ممتلكات (مملكة وادَاي).(٣٩) ويشير التقرير إلى أنَ دوافع الانتقال لم تكن واضحة ، وربما جاءت نتيجة لشعور الزعيم السنوسي على وجود نوايا عدوانية ضده ، والتي قد تكون من السلطات العثمانية ومحاولاتها مد نفوذها إلى الكفرة.(٤٠) والحقيقة أنَ الدوافع الأساسية لهذا الانتقال كانت بهدف الاستمرار في نشر الدعوة السنوسية في وسط أفريقيا من جهة ، ومواجهة تعاظم الخطر الفرنسي في تلك المناطق من جهة أخرى. والدليل على ذلك نشاط الزعيم السنوسي بعد وصوله إلى تلك المناطق ، واتصاله بالعديد من الأمراء والحكام من أجل إيجاد تحالفات قوية لمواجهة الخطر المشترك القادم المتمثل بالفرنسيين. وقد أشار التقرير إلى قيام تحالف هام عام ١٨٩٩م بين السنوسية والأمير(رباح الكبير).(٤١) ومع وفاة الأمير رباح بعد سنة واحدة جعل السنوسية تخسر حليفاً هاماً آنذاك ، الأمر الذي دفعها إلى محاولة التحالف مع حاكم دارفور السلطان (علي دينار).(٤٢) وقد نص التفاهم المشترك بين الطرفين على تعزيز أواصر العلاقات والتعامل التجاري من جهة ، ومقاومة الفرنسيين والأتراك من جهة أخرى. غير أنَ سلطان دارفور كان متردداً في تقوية علاقاته

مع السنوسيين لوجود حليف سابق له والمتمثل بالحركة المهدية في السودان ، فحاول أن يظهر بمظهر المحايد والمتعاطف مع كلتا الحركتين المهدية والسنوسية.(٤٣)

ومن جهة أخرى تحدث التقرير عن بدايات العلاقة بين السنوسيين والفرنسيين بعد محاولة الأخير إجراء اتصالات مع الحركة منذ عام ١٩٠٠م لغرض إقامة علاقات ودية معهم عن طريق أحد المشايخ العلماء في تونس غير أن زعيم السنوسية رفض ذلك. ومع توسع نشاط السنوسيين في وسط أفريقيا وتأسيهم العديد من الزوايا في المدن والواحات الداخلية خلال المدة (١٩٠٠-١٩٠١م) وقيام جبهة موحدة من أتباع السنوسية من القبائل المختلفة ، فإن الشعور بالمواجهة الحتمية مع الفرنسيين باتت قريباً. وهذا ما حدث فعلا من خلال المعارك العسكرية بين الطرفين وعبر حدوث ثلاث مواجهات رئيسية في منطقة (كانم) خلال المدة من تشرين الأول ١٩٠١م ولغاية كانون الثاني ١٩٠٢م. وقد تمكن السنوسيون والمتحالفون معهم من القبائل من تحقيق الانتصارات في معركتين فيما حقق الفرنسيون النصر في المعركة الثالثة الحاسمة.(٤٤) ولم يكن نهاية المطاف في المواجهة بين الطرفين كما سنرى لاحقاً.

مناطق التواجد المؤثر للسنوسية :

تحت هذا العنوان حاول التقرير في القسم الثاني إعطاء صورة كاملة عما وصلت إليها السنوسية من الانتشار والقوة والتأثير في مجمل المناطق الأفريقية في مطلع القرن العشرين ، حيث ابتدأ التقرير في تحديد مناطق تواجدهم وعلى النحو التالي:-

- طرابلس وبنغازي. وهما تمثلان أقوى معاقل السنوسية .
- المناطق الشمالية من وسط أفريقيا. وهي المناطق الممتدة من مصر حتى الجهات الغربية ، وتقطنها قبائل الطوارق التي انقسمت وأصبحت معظمها تحت التأثير الفرنسي.
- كانم . وتقطنها قبيلة أولاد سليمان العربية المؤيدة للسنوسية.(٤٥)
- وادَاي . كانت من أقوى معاقل السنوسية آنذاك.
- دارفور . ويحكمها السلطان علي دينار الذي يدعي الانتماء للسنوسية ، وفيها زاويتان للحركة ، غير أنها لم تقدم العدم والمساندة للسنوسيين.

- غرب أفريقيا البريطاني. لم يكن هناك تأثير كبير للمشايخ السنوسيين بالرغم من وجود بعض الزوايا التابعة للحركة في منطقة البرنو.(٤٦)

وأعطى التقرير بعد ذلك صورة عامة عن القوة والتأثير السنوسي في المناطق أعلاه من خلال الإشارة بأنَ الرقعة الواسعة الممتدة من الساحل الشمالي في طرابلس وبنغازي حتى بحيرة تشاد جنوباً لم تكن ذات كثافة سكانية عالية بسبب الطبيعة الصحراوية التي تغطي معظم تلك المناطق. كما أنَ السكان القاطنين في المدن والواحات هم ضمن مجموعات قبائل بدوية ، وبالتالي فإنَ دعوة الجهاد التي أطلقتها السنوسية لم تستطع أن تحشد العدد الكبير من السكان سوى أولئك المرتبطين روحياً بالحركة. وحتى المناطق الواقعة ضمن الممتلكات الفرنسية والبريطانية إلى الغرب من بحيرة تشاد لم تكن قد آمنت بدرجة كبيرة بفكر الحركة من أجل القيام بانتفاضة عامة في تلك المناطق.(٤٧)

ويحاول التقرير إعطاء إحصاءات تقريبية للذين أيدوا الحركة السنوسية ولبوا ندائها بالجهاد ضد الفرنسيين ، حيث بلغت أعداد المقاتلين ثمانية آلاف فارس وراكب الجمل تحت سلطة زعيم السنوسية ، غير أنهم لم يكونوا مدربين بشكل جيد على المواجهة. كما إن هنالك قوات ومتطوعون آخرون تحت سلطة زعمائها القبليين أو حكام المناطق الملقبين بـ (الأغا) أمثال: (أبو زنغر) وتحت نفوذه خمسة آلاف رجل ، و (أغا محمد) في الشمال وتحت نفوذه ألفي رجل ، و(أغا منطقة جرمان) وتحت نفوذه ألفي رجل ، فضلا عن وجود أغوات وحاكم آخرين. ويمكن القول أن هناك بحدود عشرة آلاف إلى اثنا عشر ألف مقاتل مسلحين بأنواع مختلفة من البنادق.(٤٨)

أما من حيث الأسلحة والأعتدة ، فإنَ التقرير أشار إلى أنَ السنوسيين كانوا يمتلكون كميات جيدة منها ، والتي كانت تجلب من الموانئ في شمال أفريقيا ، أو عن طريق طبرق من خلال تهريبها من ميناء الإسكندرية في مصر لصالح السنوسيين. وقد حققت المخابرات العسكرية البريطانية في ذلك وتبين لها حسب التقرير بأن وخلال عام ١٩٠١م تم تهريب حوالي سبعة آلاف بندقية من الطراز القديم عن طريق ميناء الإسكندرية ، وهذا ما أدى إلى ازدهار حركة تجارة السلاح آنذاك واستمرارها لسنوات.(٤٩)

العلاقات المستقبلية للحركة السنوية مع القوى الأوربية في أفريقيا:

تحت هذا العنوان الذي شكل خاتمة القسم الأول ، حاول التقرير إعطاء ملامح عامة لتطور العلاقات بين السنوسية والقوى الأوربية من خلال الاستناد على معلومات

واردة ضمن تقارير سرية تعود إلى عام ١٩٠٢م. إذ أنَ الاستنتاجات التي توصلت إليها أشارت إلى أنه من الصعوبة بما كان تحقيق السلام والاستقرار في المنطقة مع وجود القيادة الحالية للسنوسية (ويقصد بها السيد محمد المهدي) ، والتي كانت تدعو إلى الجهاد ضد القوى الأوربية. فالقتال الذي حصل بين السنوسية والفرنسيين في كانم لم يكن يشكل خطرا على الحركة إلاَ بعد انتقال الفرنسيين للسيطرة على السواحل الشمالية لبحيرة تشاد وظهورهم في منطقة باغرمي جنوب وادَاي. إذ أن زعيم السنوسية بدأ بالشعور بخطورة الموقف وعدم إمكانية التراجع إلى المواقع القديمة التي انطلق منها (أي الكفرة). وفي الوقت نفسه رأى بأن تكون المواجهة مع الفرنسيين من موقف دفاعي حتى لا تظهر السنوسية بمظهر المعتدي وإنما الطرف المعتدى عليه. وبما أن الأطماع الفرنسية لن تقف عند حدود مناطق كانم وإنما بدءوا بالتقدم نحو الأمام باتجاه الشمال والشرق عبر منطقتي (باغرمي ، وزندر) من أجل السيطرة على مناطق مملكة وادَاي. فبدأ السيد محمد المهدي بالاستعداد للمواجهة من خلال تهيئة المقاتلين واستيراد أكثر من أربعة آلاف بندقية. كما حاول تحريك الأوضاع في كل من تونس والجزائر اللتان كانتا تحت الاحتلال الفرنسي من خلال المظاهرات الشعبية هناك.(٥٠)

أما بالنسبة للعلاقة بين السنوسية وبريطانيا ، فإنَ التقارير الواردة من المنطقة تشير إلى عدم رغبة السنوسيين بالدخول في المواجهة المباشرة مع الانكليز في مصر والسودان. غير أن ذلك لا يعني عدم حدوث ذلك بشكل دائم ، خاصة وأنَ السنوسية كانت تنظر إلى جميع الأوربيين بأنَ لديهم أطماع في البلدان الإسلامية. فالنزاع قد يصل إلى شمال نيجيريا المستعمرة البريطانية في غرب أفريقيا ، وحيثما كان هناك نفوذ للسنوسيين.(٥١)

وفي الختام يقدم مدير الاستخبارات البريطاني في الجيش المصري المقدم كاونت (Count) في ٣ آب ١٩٠٢م ، ملاحظات موجزة عن السنوسية من خلال وصفها بأنها تنظيم ديني قوي يسيطر على مساحات واسعة من المنطقة ويمتلك إمكانيات بشرية ومادية كبيرة. فهنالك المئات من الزوايا السنوسية المنتشرة على طوال الطرق الهامة وهي تحت إمرة زعيم السنوسية السيد محمد المهدي ، الذي يمتلك شخصية قوية مؤثرة على كافة الأتباع وعلى جميع مناطق شمال أفريقيا. وأن تلك المكانة متوقفة على النجاحات العسكرية التي يحققها ، والتي يمكن أن تنهار بسبب ذلك. ويؤكد أخيرا على ضرورة

قيام بريطانيا ومن خلال تواجدها القوي في مصر بمراقبة الحركة السنوسية بعناية ن وتجنب المواجهة العسكرية معها.(٥٢)

القسم الثاني : (١٩٠٢ -١٩٠٥م)

وفاة محمد المهدي السنوسي وتولي أحمد الشريف

توفي السيد محمد المهدي السنوسي في ٣١ مايس ١٩٠٢م ، وحسب التقرير فإنَ أمر وفاته ظلَ سراً لبضعة أشهر حتى كان البعض من أتباعه أنه مازال حياً ، ثم نقل جثمانه من قرو إلى الكفرة في عام ١٩٠٣م ، ودفن في أحد مساجدها ليصبح فيما بعد مزاراً للسنوسيين. وقد ترك ولدين شابين هما: (محمد رضا) وعمره ثلاثة عشر عاما (ومحمد إدريس) وعمره أربع سنوات. وكذلك أربعا من أبناء أخيه (محمد الشريف) وهم: الأكبر (السيد أحمد الشريف) وعمره حوالي خمس وعشرون عاما ، و (علي الشريف) وعمره ثلاثة عشر عاما ، و(محمد الهلالي الشريف) وعمره عشر سنوات ، و(محمد صافي الدين) وعمره سبع سنوات. فتم اختيار أكبرهم سنا إبن أخيه (أحمد الشريف) ليكون زعيما للحركة بعد تأييد جميع الشيوخ السنوسيين وإرسالهم الرسائل إلى جميع الزوايا للحصول على التأييد والبيعة.(٥٣)

وفي خضم تلك الظروف والأجواء ، كانت المواجهات بين السنوسيين والفرنسيين مستمرة في مناطق كانم. فقام السيد احمد الشريف بإرسال حملة دعم مؤلفة من ستمائة مقاتل بقيادة احد المشايخ لإخراج الفرنسيين من كانم ، لكنها فشلت في تحقيق المهمة. ونتيجة لذلك بدأ السيد احمد الشريف في التفكير بالانسحاب من مدينة قرو إلى الكفرة المركز السابق للحركة السنوسية.(٥٤)

وقد أعطى التقرير وصفا هاما عن الكفرة من خلال الإشارة إلى أنها كانت عبارة عن واحة كبيرة وخصبه فيها الآلاف من أشجار النخيل ، ويقطنها الكثير من السكان معظمهم من قبيلة (الزوية) العربية ، والتي كانت على عداء شديد مع الإدارة العثمانية ويرفضون إعطاء الضرائب لمأموريها. وقد بنى السنوسيون زاويتين في الكفرة إحداها في الجزء الجنوبي من الواحة ، والأخرى بنيت في وسط الواحة. أما المساكن فإنها مبنية من الطين والحجر وبشكل بسيط ومتواضع ، غير أن الماء المتوفر وفرَ فرصة كبيرة لزراعة مختلف أنواع المحاصيل من الخضراوات والفواكه.(٥٥)

وبالرغم من خسارة السنوسيين للمعارك مع الفرنسيين في كانم إلاَ أنهم حاولوا الإبقاء على وجودهم فيها من خلال نشاط زاويتين تابعتين لهم هناك.(٥٦) أما منطقة واداي فإنه وبعد وفاة سلطانها الداعم للسنوسية (علي بن محمد الشريف) عام ١٨٧٤م ، تولى أخوه (يوسف) عرش السلطنة حتى عام ١٨٩٨م.(٥٧) وبوفاته حدث صراع على السلطنة بين أبناء السلطان علي. وقد حاول السنوسيون التدخل لحل القضية من دون جدوى حتى تمكن أحدهم ويدعى (داود مرة) من الانتصار وتبوء عرش السلطنة مع تمتعه بعلاقات حميمة مع السنوسية ومع زعيمها بشكل خاص.(٥٨)

أما بالنسبة لدارفور ، فإنَ السنوسية حاولت إرسال بعض المندوبين إلى السلطان علي دينار من اجل السماح لهم بتأسيس زوايا سنوسية في منطقتي (الفاشر ، وجبل مرَة) ، لكن السلطان رفض ذلك معللاً لشعبه أن دارفور تقع بين الأتراك (ويقصد حكم الخديوية في مصر) والدول الغربية ، والمحافظة عليها من الأخطار الخارجية واجب. كما أن علاقاته مع سلطان واداي المؤيد للسنوسية لم تكن ودية ، والتجارة بين منطقتيهما كانت متوقفة آنذاك.(٥٩)

وختم التقرير في جزئه الثاني الحديث عن تطور المواجهة العسكرية بين السنوسيين والفرنسيين. إذ أشار إلى تحركات الزاوية السنوسية في كانم لحشد الطاقات من اجل المواجهة ، وفي المقابل حاول الفرنسيون استغلال معارضة بعض الأفارقة السود للوجود السنوسي لغرض استخدامهم في ضرب السنوسيين. إذ تمكن الفرنسيون من حشد حوالي أربعمائة وخمسون من الأفارقة تحت إمرة الضباط الفرنسيين كمحاولة طرد السنوسيين من كانم ، غير أن تلك المحاولة باءت بالفشل نتيجة لصمود أتباع السنوسية ، حيث قتل من جانب الحملة الفرنسية خمس وأربعون من المقاتلين ، ومن السنوسيين أحد عشر مقاتلا. (٦٠)

ومن أجل دعم صمود السنوسيين في كانم ، جرى إرسال تعزيزات من قرو في شمال شرق تشاد إلى هناك ، فضلا عن قدوم عدد كبير من قبيلة أولاد سليمان المؤيدة للسنوسية للمشاركة في القتال ضد الفرنسيين. وقد تمكن الفرنسيون من تحشيد أكثر من ألفان وخمسمائة جندي للهجوم على الزاوية السنوسية في كانم ، وتمكنوا من احتلالها

في ١٩ كانون الثاني ١٩٠٢م بعد تكبيد السنوسيين خسائر كبيرة من القتلى ، الأمر الذي أثر على معنويات المتبقين بشكل كبير.(٦١)

وقد دفعت الأحداث المتسرعة في كانم إلى قيام السنوسية بدعم سلطنة واداي في تشاد بالمال والسلاح لمواجهة احتمالية قيام الفرنسيين بالتوسع فيها. وازداد نشاط تجارة الأسلحة إلى واداي عبر الصحراء ، خاصة تلك التي كانت تجلب سرا من مصر. وحاولت بريطانيا الضغط من أجل عدم السماح بذلك دون أن يؤدي ذلك إلى إثارة الخلافات مع السنوسيين. كما أن الإيطاليين حاولوا منذ عام ١٩٠٣م التودد للسنوسية من خلال قيام القنصل الإيطالي في القاهرة بإرسال هدايا ثمينة من ألبسة حريرية وسروج وبندقية ومسدس مكتوب عليه اسم زعيم السنوسية السيد أحمد الشريف. وردَ السيد برسالة شكر وامتنان للقنصل في كانون الأول ١٩٠٣م ، وذلك عن طريق أحد التجار المعروفين في القاهرة ويدعى (عبد الله الكحال). (٦٢)

القسم الثالث: (١٩٠٥-١٩٠٧م)

وتضمن هذا القسم الأخير معلومات مفصلة عن استمرار المعارك بين السنوسيين والفرنسيين بعد اندفاع الأخيرين لاحتلال مناطق مملكة واداي. وقد أشار التقرير بأن مصادر المعلومات الواردة في هذا القسم جاءت من المصادر الفرنسية المستندة على التقارير العسكرية الفرنسية الواردة من مناطق مختلفة في أفريقيا ، فضلا عن تقارير الاستخبارات البريطانية في كل من مصر ونيجيريا المستعمرتين التابعتين لها من خلال المعلومات الواردة من الطرق والمسالك والتجارة.(٦٣)

لقد مهدت المعاهدة البريطانية - الفرنسية الموقعة في نيسان ١٩٠٤م الطريق نحو الاحتلال الفرنسي لمناطق تشاد. إذ بدأت طلائع القوات الفرنسية بالتوغل في تلك المناطق في آب ١٩٠٤م ، حيث تكللت المحاولات خلال عام ١٩٠٥م بتحديد حركة بعض القبائل المؤيدة للسنوسية الموجودة في المناطق التشادية مثل: قبائل التبو ، وقبائل وروكورتا ، وقبائل أولاد سليمان .ثم بدأت في الشروع بالقيام بعمليات عسكرية مكثفة في منتصف عام ١٩٠٦م وعبر التحرك في ثلاث اتجاهات رئيسية هي:-

١- مناطق الجنوب الشرقي: وكان فيها الواديين قد تحركوا في مقاطعة سلامات بقيادة الشيخ (يامبارو).

٢- المناطق الشرقية: كانت العمليات الفرنسية ضد قبائل (التيداس) الذين يعيشون في أعالي بحر الغزال . وتمكن الفرنسيون من إخضاعهم واحتلال الزاوية السنوسية الصغيرة الموجود في تلك المنطقة.

٣- الشمال : قام الفرنسيون باحتلال واحة (بلما) الهامة بالرغم من الهجمات المضادة لبعض قبائل الطوارق وبعض القبائل العربية المنطلقة من مناطق الكفرة.(٦٤)

ويعد عام ١٩٠٧م عام التراجع الكبير لنفوذ السنوسيين في الدواخل الأفريقية. إذ أنهم واجهوا هزائم عسكرية في شباط من العام المذكور عند مقاطعة (مويتو) في آذار من العام ذاته تعاونت بعض القبائل الأفريقية مع الفرنسيين لإخراج السنوسيين من مناطق (بوركو) ، حيث تم فيها قتل أحد كبار المشايخ السنوسيين هناك ويدعى (سيدي البراني) . وجرت مواجهات عسكرية أخرى مع المقاومين من واداي في صيف عام١٩٠٧م بقيادة أحد الزعماء المحليين ويدعى (جارما) ، والذي قتل على يد الفرنسيين. ويبدو أنَ تحركات القوات العسكرية الفرنسية كانت تسير ببطئ بسبب شدة المقاومة ونقص التعزيزات المرسلة من فرنسا نتيجة لبعد المسافة . وقد أشار التقرير إلى أعداد بعض القطعات الفرنسية في بعض المقاطعات التشادية مثل: مقاطعة (جاري – تشاد) التي كان فيها ألف مقاتل من الفرنسيين والمحليين المتعاونين معهم. وفي منطقة (بلما) كان هناك ستين جنديا فرنسيا. وقد حاول الفرنسيون إيجاد قوى محلية متعاونة معهم تستطيع من خلالهم السيطرة على بقية المناطق التشادية.(٦٥)

السنوسي .. وواداي

تحت هذا العنوان ختم القسم الثالث والأخير من التقرير . إذ أشار إلى وجود عدد من الزوايا السنوسية المتبقية في مناطق واداي مثل: (يكورو ، نيانكه ، تركا ، عين ككلا ، فيا) . ولهذه الزوايا عدد قليل من الحراس المدافعين ، والذين يمكن تحديده ما بين (١٠- ٦٠) مقاتل لكل زاوية من هذه الزوايا ، وهم من عرب الكفرة أو من الأفارقة المؤيدين للسنوسية. أما الزعماء القبليين في تلك المناطق ، فإنهم لم يتمكنوا من الاستمرار بالمقاومة ضد الفرنسيين ، خاصة مع تراجع تأثيرهم على قبائلهم الموجودة في مناطق شمال شرق تشاد عما كان عليه في السابق قبل خمس سنوات. وهكذا أصبحت

السنوسية في تراجع كبير بمنطقة واداي أمام تقدم الفرنسيين وسيطرتهم على بقية المناطق نتيجة للقوة المتزايدة للفرنسيين والتفوق في مجال التسليح .(٦٦)

النتائج :

١- إن الأفكار السنوسية الداعية إلى الإصلاح الديني بشكل سلمي ، وترسيخ قيم التعاون ومنع الخلافات بين الأفراد والجماعات ، قد ساهمت بشكل كبير في انتشار الحركة وازدياد مؤيديها في مناطق واسعة في أفريقيا.

٢- إن من الأهداف الأساسية التي دفعت الدوائر العسكرية البريطانية لإعداد مثل هذا التقرير ، هو جمع المعلومات عن الحركة السنوسية ومراقبة تحركاتها بغية الاستعداد لأية مواجهة مستقبلية معها ، وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك خلال الحرب العالمية الأولى.

٣- ركز التقرير السري البريطاني على دراسة جذور قيام الحركة والأفكار التي تمكنت من خلالها تحقيق الانتشار الواسع في المدن والمناطق المختلفة من أفريقيا.

٤- أوضح التقرير الدور الأساسي للزوايا السنوسية في نشر أفكار الحركة من خلال انتشارها الواسع في المناطق المختلفة ، وما كانت تقوم به من مهام اقتصادية واجتماعية مميزة ، فضلا عن دورهاالمميزفي مواجهة التغلغل الاستعماري الأوربي في شمال ووسط أفريقيا.

٥- تميزت العلاقة بين السنوسيين والقوى الأوربية بالتوتر المستمر بسبب الموقف المناهض للحركة من التوسع الاستعماري في أفريقيا ، وتحول ذلك إلى الدعوة للجهاد ومقاومة المحتلين.

٦- إن المواجهات العسكرية بين السنوسية ومؤيديها من القبائل والأمراء وبين القوات الفرنسية المحتلة لمناطق وسط أفريقيا ، هي التي أخرت تقدم الفرنسيين نحو بسط نفوذهم في تلك المناطق لمدة ما يقرب من عقد كامل.

٧- أشار التقرير إلى محاولات الفرنسيين في إثارة الخلافات بين الأفارقة السود وبين السنوسيين. وهي سياسة اتبعتها فرنسا في احتلالها للعيد من المناطق الأفريقية من خلال بث الفرقة والعداء بين العرب والأفارقة.

٨- إن التسليح الجيد للفرنسيين والإمكانات العسكرية المتوفرة لديهم هي التي ساهمت أخيرا في الانتصار على المقاومين السنوسيين ومؤيديهم الذين افتقدوا إلى التسليح المناسب ، وبعد المسافات بين المدن والمناطق ، والتي كانت تمنع من تحقيق الاتصالات وإرسال التعزيزات من المتطوعين بشكل مستمر.

ملخص البحث

يتناول البحث تقرير سري بريطاني غير منشور صادر عام ١٩٠٨م والخاص بتاريخ الحركة السنوسية وعلاقاتها بالقوى المحلية والدولية خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وهو في الأساس مجموعة من تقارير الاستخبارات العسكرية البريطانية.

إن المعلومات الواردة في التقرير تعد ذا أهمية كبيرة بالنظر للجهة التي قامت بإصدارها وهي بريطانيا ، والتي كانت لها دوافع سياسية وإستراتيجية وعسكرية في المنطقة. كما أن وجود قوة محلية مثل الحركة السنوسية ، والتي استطاعت نشر أفكارها والحصول على الأتباع والمؤيدين في مناطق واسعة من شمال أفريقيا ووسطها ، جعلها قوة منافسة ومواجهة للأطماع الاستعمارية الأوربية الراغبة في السيطرة على هذه المناطق ، خاصة بالنسبة لفرنسا وإيطاليا وبريطانيا. وقد عملت الحركة وعلى مختلف الصعد ومننها العسكرية لمواجهة التغلغل الأجنبي. وكانت لها مواقف وحروب خاصة مع الفرنسيين في مناطق كانم ، ووداي في شمال شرق تشاد خلال المدة (١٩٠١-١٩٠٧م) ، والذي تناوله التقرير بشيء من التفصيل.

Abstract

This research is a study in un published British secret report issued in ١٩٠٨ about the history of Senussiism and it's relations with local and international powers during ١٩th and the beginning of ٢٠th centuries it is mainly consist from many British military reports.

The information's in this report is very important because it issued from Britain , the side which had political , military and strategic aims in north and inside Africa, and the attendance of a local power, the senussiism, which put out it's thought and gained followers in wide places from north and inside Africa , made it a competitor power and in face with European colonialism greediness in these, specially France ,Italy and Britain , and it worked by using many ways to face and stop

against the French in Kanum , Wadai in north-east Tchad during the period between ١٩٠١-١٩٠٧ which the report explained .

هوامش البحث

١ للتفاصيل عن الحركة الوهابية وموقفها من الاتجاهات المخالفة لها ينظر: صلاح العقاد ، جزيرة العرب في العصر الحديث ، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٩).

٢ تناولت العديد من الدراسات تاريخ الحركة السنوسية مثل: كتابات المؤرخ السنوسي محمد الطيب بن إدريس الأشهب وهي (برقة العربية أمس واليوم) ، (السنوسي الكبير) ، (المهدي السنوسي). وكتابات المؤرخين الأكاديميين أمثال: محمد فؤاد شكري في كتابه (السنوسية دين ودولة) ، والمؤرخ نيقولا زيادة في كتابه (Sanusiyyaah) ، وأحمد صدقي الدجاني في دراسته (الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر). والمؤرخ علي محمد الصلابي في كتابه (الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا). والدراسة السسيولوجية للباحث أكرم مصطفى الخضري (الآثار الاجتماعية للحركة السنوسية في ليبيا) رسالة ماجستير كلية الآداب / جامعة القاهرة . ودراسة محمد علي محمد معين (الحركة السنوسية وعلاقتها الإقليمية والدولية) رسالة ماجستير كلية الآداب/ جامعة الموصل. كما تناولت بعض الكتابات الغربية الحركة السنوسية أمثال : دراسة الرحالة والمؤرخ الفرنسي هنري دوفريه(Henry Duverier) المعنونة: Leconfrerie musulman De Sidi Mohammed Ben Ali Es-Senos ودراسة الأنثربولوجي والضابط البريطاني إدوارد إيفانز بريتشارد (Evans – Pritchard) المعنونة : The Sanusio of Cyrenaica

٣ السيد محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧-١٨٥٩م): عالم دين جزائري الأصل يعود نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) عبر أجداه من الخلفاء الأدارسة الحسنيين. ولد في مدينة مستغانم ودرس في مدارسها ومعاهدها الدينية. ثم انتقل إلى الدراسة في جامعة القرويين بفاس ، والأزهر بمصر ، والمدينة المنورة في الحجاز . وقد استفاد من أسفاره في الحصول على التعليم الواسع والخبرة الكبيرة حول أحوال المسلمين ومشاكلهم ، الأمر الذي أهله لطرح الأفكار الإصلاحية التي نادى بها. للتفاصيل : محمد الطيب بن إدريس الأشهب ، السنوسي الكبير ، (القاهرة: مكتبة القاهرة ، ١٩٥٦) ، ص٧-١١.

٤ أحمد صدقي الدجاني ، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر ، ط١ ، (القاهرة: د.م ، ١٩٦٧) ، ص٢٩-٣٠.

٥ السيد محمد المهدي السنوسي(١٨٤٤-١٩٠٢م):ولد في حاسة بالجبل الأخضر ، وتلقى علومه الدينية منذ صباه على يد والده ، ونشأ تحت رعايته. وبعد وفاة أبيه تولى زعامة الحركة السنوسية ولقي الدعم والتأييد من قبل الأتباع ومن الأمراء والسلاطين بما فيهم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. محمد الطيب بن أحمد إدريس الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، ط١، (القاهرة: مطبعة الهواري ، ١٩٤٧) ، ص٢٠٢-٢٠٣.

٦ محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، (القاهرة: دار الفكر العربي ، ١٩٤٨) ، ص٩٥.

٧ الزوايا : جمع زاوية وتقابلها في المشرق (التكايا) ، وهي المكان الذي يجتمع فيه أتباع الطريقة الصوفية للعبادة ونشر الأفكار الخاصة بها. ويكون على رأس الزاوية مرشد كبير يعرف بـ (المقدم) ويتمتع بسلطة روحية كبيرة على الأتباع في الزاوية وعلى السكان القاطنين بالقرب منها. وهو يرتبط بالزعيم الكبير وبالمركز الرئيسي للسنوسية في الجغبوب ، أو الكفرة ، أو قرو. المصدر نفسه ، ص٤٨-٤٩. وقد بلغت الزوايا السنوسية في ذروة انتشارها ما يناهز المائة والست والأربعون زاوية منتشرة في مختلف الأرجاء من العالم الإسلامي من الحجاز إلى المغرب الأقصى. نيقولا زيادة ، محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال ، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٥٨) ، ص٦٨-٦٩.

٨ شكري ، المصدر نفسه ، ص٤٨.

٩ بلغت مساحات الأراضي الزراعية التابعة للزوايا السنوسية في مناطق العالم الإسلامي مائتا ألف هكتار ، منها خمسون ألف هكتار في إقليم برقة لوحدها. Evans-Pritchard EE , The Sanusie of Cyrenaica , (London: Oxford prees,١٩٤٩) , p.٧٧-٧٨.

١٠ الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، ص١٩٩.

١١ ن.أ. بروشين ، تاريخ ليبيا في العصر الحديث منتصف القرن السادس عشر-مطلع القرن العشرين ، ترجمة عماد حاتم ، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ١٩٩١) ، ص٣٢٨.

١٢ Pritchard, op.cit , p.٧٠.

١٣ صادق مؤيد العظم ، رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا ، ترجمه عن العثمانية عبدالكريم أبوشويرب وراجعه صلاح الدين حسن السوري ، ط١ ، (طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ١٩٩٨) ، ص١١٧-١١٨.

١٤ أكرم مصطفى الخضري ، الآثار الاجتماعية للحركة السنوسية ، (رسالة ماجستير) ، (القاهرة: كلية الآداب ، ١٩٩٦) ، ص٥٤٩.

١٥ الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، ص١٦.

١٦ أحمد صدقي الدجاني ، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في أواخر العهد العثماني ١٨٨٢-١٩١١، ط١، (القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة ، ١٩٧١) ، ص٨٤-٨٥ ، ص١٩٤.

١٧ غيرهارد رولفس ، رحلة إلى الكفرة ، ترجمة عماد الدين غانم ، ط١، (طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، ٢٠٠٠) ، ص٤١٢-٤١٣.

١٨ ينظر: الملحق رقم (١) صورة العنوان الرئيسي للتقرير.

١٩ الدجاني ، الحركة السنوسية ، ص١٩٥ ، ص١٩٩.

٢٠ السيد أحمد الشريف(١٨٧٣-١٩٣٣م): ولد في واحة الجغبوب مركز الحركة السنوسية في شرق ليبيا. نشأ وترعرع على الأفكار السنوسية وتعلم في مدارسها، ثم تزعم الحركة بعد وفاة عمه السيد محمد المهدي في الكفرة . إذ أن الأخير كان له أولاد صغار ، فأوصى أن تكون الزعامة لابن أخيه . وقد أظهر السيد أحمد الشريف مقدرة كبيرة في الإدارة والقيادة للحركة السنوسية وزواياها خلال مدة زعامته للحركة والتي امتدت من عام ١٩٠٢ حتى عام١٩١٧م ، حيث تنازل بعدها عن القيادة لابن أخيه إدريس وهاجر هو إلى تركيا ثم إلى الحجاز وظل هناك حتى وفاته عام ١٩٣٣م. علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، ط١، (القاهرة : دار التابعين للنشر والتوزيع ، ٢٠٠١) ، ج٢، ص٢٧٣ وما يليها.

٢١ للتفاصيل عن حملة أحمد الشريف على مصر ينظر: مصطفى هويدي ، الحركة الوطنية في شرق ليبيا ، (طرابلس: مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ، ١٩٨٨) ، ص٦٩ وما يليها.

٢٢ عبد الله عبد الرازق إبراهيم وشوقي الجمل ، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع ،٢٠٠١) ، ص٤١٢-٤٣٦.

٢٣ المصدر نفسه ، ص٣٤٩- ٣٧٢.

٢٤ الدجاني ، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي ، ص٣٣٨-٣٤٠.

٢٥ نص التقرير : NOTES OF THE HISTORY … , p. ٣٠

٢٦ زيادة ، المصدر نفسه ، ص٦٣. الدجاني ، الحركة السنوسية ، ص٤٣.

٢٧ أشارت بعض المصادر التاريخية بأنَ لقب السنوسي قد جاء من جده الرابع (السيد محمد بن عبد القادر) ، والذي من كبار علماء الجزائر. وكان قد أقام في تلمسان عند قبيلة يقال عنها سنوسي نسبة إلى جبال هناك تسمى (اسنوس). فصار هذا اللقب يعرف به هو وأولاده وأحفاده . الدجاني ، الحركة السنوسية ، ص٣٦.

٢٨ نص التقرير : NOTES OF THE HISTORY … , p. ٣.

وتشير بعض المصادر بأنَ مغادرة السيد محمد بن علي السنوسي للحجاز كان لأول مرة في عام ١٨٤٠م ، وليس كما ورد في التقرير عام ١٨٤٣م . شكري ، المصدر نفسه ، ص٢٧. زيادة ، المصدر نفسه ، ص٦٥. أما الدجاني ، الحركة السنوسية ، ص٧٥ فيشير بأنَ تاريخ المغادرة من الحجاز لأول مرة كان عام ١٨٣٩م.

٢٩ الدجاني ، المصدر نفسه ، ص١١٣-١١٦.

٣٠ نص التقرير : NOTES OF THE HISTORY … , p. ٣.

٣١ Ibid , p.٣- ٤.

٣٢ Ibid , p. ٤.

٣٣ السلطان علي : هو ابن السلطان محمد الشريف من قبيلة متلافيا في قوش. تولى السلطنة في واداي بعد وفاة أبيه عام ١٨٥٨م ، ونال احترام وتقدير الجميع لعدله وتسامحه. وقد عمل على تشجيع التجارة وإعادة فتح طرق القوافل التجارية بدلاً من الانشغال بالحروب والغزوات التي كانت تمارسها القبائل في بلاده . وقد استمر في حكمه العادل حتى وفاته عام ١٨٧٤م.

((الانترنت)) ، موقع سلطنة واداي . www.waddai.net

٣٤ نص التقرير: NOTES OF THE HISTORY … , p.٤ .

٣٥ Ibid .

٣٦ Ibid.

ومن الجدير بالذكر هنا أنَ مبعوث السلطان عبد الحميد الثاني إلى زعيم السنوسية في الكفرة عام ١٨٩٥م كان مستشار السلطان والضابط العسكري صادق مؤيد العظم ، الذي حمل رسالة من السلطان مع مجموعة من الهدايا. وبعد عودته قدم تقريرا مفصلا عن تلك الرحلة وتم نشرها فيما بعد. للتفاصيل ينظر: العظم ، المصدر نفسه ، ص١٦٩-١٧٠.

٣٧ الحركة المهدية : ظهرت هذه الحركة على يد محمد بن أحمد بن عبد الله (١٨٤٤-١٨٨٥م) الملقب بالمهدي لاعتقاده بأنه هو المهدي المنتظر. وقد انطلقت دعوته منذ عام ١٨٨١م بعد تمكنه من كسب المؤيدين والأتباع الملقبين بـ(الأنصار) ، وتمكن من السيطرة على مناطق واسعة من السودان وتأسيس دولته هناك. وخاض حروباً طويلة مع جيوش الحكومة المصرية التي كانت تسيطر على السودان ، وكذلك مع القوات البريطانية التي حاولت ضم السودان إلى حكمها المباشر في مصر عام ١٨٩٩م.
عبد الرحمن الرافعي ، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، (القاهرة: دار المعارف ،١٩٤٢) ، ص١٠٨-١١٧.

٣٨ نص التقرير: NOTES OF THE HISTORY … , p.٤ .

٣٩ مملكة وادَاي: واداي منطقة واقعة إلى الغرب من بحر الغزال باتجاه شمال شرق تشاد، وسكانها خليط من مجموعة من القبائل العربية والأفريقية . وقد ارتبطت كغيرها من المناطق بشمال أفريقيا عن طريق التجارة ، الأمر الذي ساهم في نشر الإسلام
فيها من خلال هجرات بعض القبائل والتجارة والطرق الصوفية. وتم تأسيس مملكة واداي عام ١٦٣٥م بزعامة إحدى القبائل ويكون السلطان الحاكم أعلى سلطة في البلاد يساعده مجلس شورى أو مجلس الحل والربط ، حيث استمرت تلك المملكة خلال القرون التالية حتى سقوطها من قبل الفرنسيين عام ١٩٠٩م بعد احتلالهم للبلاد.
((الانترنت)) ، موقع سلطنة واداي . www.waddai.net

٤٠ نص التقرير: NOTES OF THE HISTORY … , p.٥ .

٤١ رباح الكبير(العبد الرابح) : ولد في سنار بالسودان ، وكان أبوه أحد علماء المنطقة توفي عند ولادة رابح فكفله عمه والي بحر الغزال والفونج الزبير باشا. فنشأ تنشئة عسكرية وأصبح من كبار القادة ، وقاد حملة لضم الممالك والإمارات في وسط أفريقيا
وتمكن من الاستيلاء على الكثير منها ، غير أن الفرنسيين تمكنوا من القضاء على حكمه عام ١٩٠٠م . عبد الرحمن تشايجي ، الصراع التركي– الفرنسي في الصحراء الكبرى ، ترجمة علي إعزازي ، (طرابلس: مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ، ١٩٨٢) ، ص١٦١-١٦٢.

٤٢ السلطان علي دينار: ولد بدارفور من أسرة دينية عام ١٨٥٦م ، واشترك مع ابن عمه السلطان أبو الخيرات في ثورة حدثت هناك.

ثم تولى حكم السلطنة بعد وفاة السلطان المذكور واشتهر بدعمه للحركة المهدية في السودان من خلال المشاركة ببعض المعارك ضد القوات البريطانية حتى استشهاده في إحداها في ٦ تشرين الثاني عام ١٩١٦م .

((الانترنت)) ، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة ، مادة (علي دينار) . www.ar.wikpedia.org

٤٣ نص التقرير: NOTES OF THE HISTORY … , p.٦ .

٤٤ Ibid , p. ٧ .

٤٥ قبيلة أولاد سليمان: تنتسب هذه القبيلة إلى بني ذياب بن مالك من بني سليم الذين هاجروا إلى مناطق شمال أفريقيا أثناء الهجرة الهلالية من مصر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر. واستوطنت القبيلة مناطق فزان جنوب ليبيا على شكل قبائل بدوية متنقلة والتي كانت تتوغل أحيانا نحو الدواخل الأفريقية وكذلك السواحل في منطقة سرت. هنريكو دي أغسطيني ، سكان ليبيا ، ترجمة خليفة محمد التليسي ، (ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب ، ١٩٩٠) ، ج١ ، ص٣٥١-٣٥٢.

٤٦ OTES OF THE HISTORY .. , p. ٨-٩.

٤٧ Ibid , p. ٩.

٤٨ Ibid , p. ٩ -١٠.

٤٩ Ibid , p. ١٠.

٥٠ Ibid , p.١٠-١١.

٥١ Ibid , p. ١٢.

٥٢ Ibid , p. ١٣.

٥٣ Ibid , p. ١٤.

٥٤ Ibid .

٥٥ . Ibid

وقد عمل السنوسيون خلال اتخاذهم الكفرة كمركز رئيسي لحركتهم على إدخال أصناف جديدة من الفواكه إلى الكفرة لغرض زراعتها بعد جلبها من مناطق من الساحل الشمالي ومن واحة سيوه بمصر، الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، ص٢٢-٢٣.

٥٦ نص التقرير: NOTES OF THE HISTORY … , p. ١٤.

٥٧ Ibid , ١٥.

٥٨ Ibid .

٥٩ Ibid .

٦٠ Ibid , p. ١٦.

٦١ Ibid , p. ١٧.

٦٢ Ibid , p.١٧-١٨

٦٣ Ibid , p. ١٩.

٦٤ Ibid , p. ١٩ -٢٠.

٦٥ Ibid , p. ٢٠.

٦٦ Ibid , p. ٢١.

الملاحق :

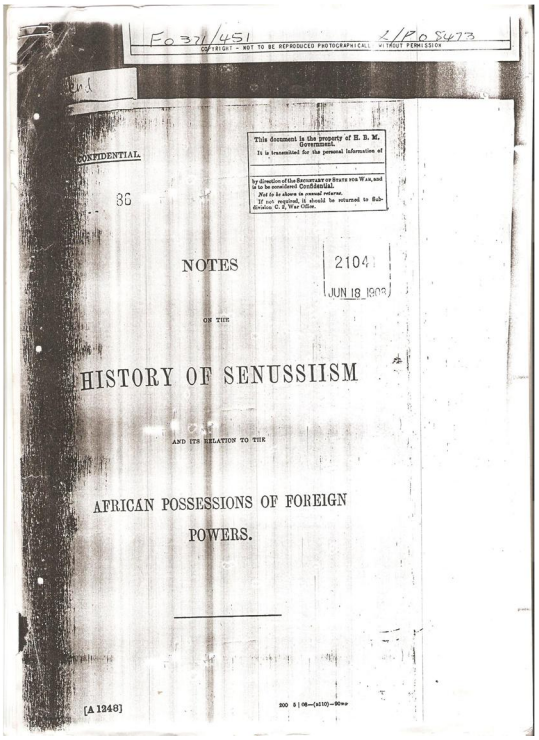

F037/451

COPYRIGHT - NOT TO BE REPRODUCED PHOTOGRAPHICALLY WITHOUT PERMISSION

CONFIDENTIAL

This document is the property of H. B. M. Government.
It is transmitted for the personal information of
by direction of the Secretary of State for War, and is to be considered Confidential.
Not to be shown in general returns.
If not required, it should be returned to Sub-division, G. S. War Office.

NOTES

2104
JUN 18 1908

ON THE

HISTORY OF SENUSSIISM

AND ITS RELATION TO THE

AFRICAN POSSESSIONS OF FOREIGN POWERS.

[A 1246]

١- خارطة المناطق الداخلية الأفريقية المرفقة في نهاية التقرير البريطاني .